الفصل الثالث
التكوين الفكرى فى البصرة

فكريات المصر :

قد يكون لهذه النقطة من البحث مكانٌ آخرُ فى هذا الكتاب ، غير أنى رأيت أن أرْدِفَها بما أثرته عن عقلية البصريين ، لأن الخطةَ التى اتَّبَعتُها فى الإحاطة بتاريخ المصر وتطوُّرِ حياته وتحليل عناصره السكانية تؤدى بالضرورة إلى الكشف عن التخطيط الكبير لجانبى الفكر والفن جميعًا ، والواقع أن شتى عوامل — بعضها إسلامى — عملت فى تكو ين العقل البصرى ، وعمل هذا العقل على أن يكون مناراً يشع الثقافة الإسلامية طوال قرون ثلاثة — تقر يبًا — فى الإسلام ! وليس من شك فى أن الأدب لا بد أن يتأثر بذلك ، ولا بد أن تمسه الفكريات التى كونتها الأجيال المسلمة .

فإذا كان للعقل الإسلامى دور فى التخطيط العلمى الذى حدده ، فإنه لا بُدَّ أن نعترف بتأثير هذا الدور فى الأدب ، وإلا فماذا نقول مثلا عن النظام وهو خير من يعطينا المثل الواضح على الأديب المفكر ، أو على الشاعر العالم ؟ إنه يكتب فى الدين ، ويناقش فى الكلام ، ثم ينقلب إلى « عصابة السوء » كما يسمى أبو نواس أصحابه فيأخذ بأسباب اللهو ويقول الشعر فى الخمر والمجون . والعجيب بعد ذلك أن يتنازع بعضَ شعرِ العبث هذان الرجلان ، أبو نواس والنظام ! وربما شاركهما بصرىٌ ثالث هو الحسين الخليع او غيره .

وقد يعن لى أن أتعمق ثقافة هؤلاء ، فأرى إلى جانب العنصر الإسلامى عناصر يونانية وفارسية وهندية ونبطية . وليس يضير أحداً أن يكون فى أعماق هؤلاء أشياء من موروث البصرة القديم ، كما لا يضيره أن توجه هذه النظرة ذاتها

إلى غيرهم من علماء البصرة وأدبائها ؛ فلقد كان العقلَ البصرى الفذ وليد ذلك التعارض الشديد بين الإسلام وما عداه ، وهل مندوحة عن احتكاك العقليات لتكوين الآثار التى يتاح لها أن تبقى على مر العصور ؟ إن العقل الكبير نتاج طبعى لتلاقى الثقافات واختلاط الأجناس ، وتفاعل الأذواق والأهواء .

كان التخطيط العلمى يتم فى البصرة فى أوساط مختلفة ، متعارضة ، لكلٍّ اتجاه ولكل ماضيه وأساسه الذى يقوم عليه .

فرجال الدين مثلا يجعلون القرآن والحديث أساسًا لدراستهم ، والمتكلمون يتخذون هذا الأساس ولكن بعد أن يتزودا بما ذاع فى الإقليم من آراء الفرس وفلسفة اليونان ، والشعراء يسمعون لكل هؤلاء ، ويحفظون للجاهليين ، ويقبلون على البدو يسترشدونهم .

فثمة حركة ، وثمة مدارسة ، وثمة احتكاك وتصارع فكرى !

ونستطيع أن نعرض هنا — بادئءَ ذى بَدْء — لحضارة اليونان فى البصرة طَوَال ماضيها وفى حاضرها ، فنرى أنها لم تقم إلا بعد أن اتصلت بالساميين فى بابل وأشور ، بل كذلك بالمصريين الذين كانوا قد توصلوا إلى صنوف رفيعة من العلم والفن . ويقرر الدكتور طه حسين أنهم أخذوا عن الشرقيين نظامَ النقْد ونظام المقاييس وشيئًا من الموسيقى ، وفنونًا من الحساب والهندسة[1] وليس شك فى أن هذا يفتح لها أبوابًا من الفكر والبحث . بل قد نجد أن بعض الفلسفة اليونانية يستند إلى أصول شرقية .

فإذا انتقلنا إلى الرومان ، رأينا بسهولة أن أدَبهم لم يستكمل وجوده إلا بعد أن اتصل بالأدب اليونانى اتصالاً دقيقًا عميقًا ، والأدب العربى فى إسراعه إلى التقدم هذه الأيام إنما يرجع إلى أخذه بحظوظ مختلفة من الثقافات الأجنبية .

---

(١) قادة الفكر ٢١ (ط . دار الهلال) .

ولماذا نقصر حديثنا على الأدب وحده ؟ لماذا لا ننظر إلى حياتنا الاجتماعية فى صورة أكثر شمولا واتساعًا ؟ ألسنا نأخذ أنفسنا الآن بكل ما يتصل بالغربيين من أسباب ؟

إننا نتعرض لألوان من المشقة حين نجبر أنفسنا على أن نسير فى الطريق الذى يقطعونه فى بناء نهضتهم المادية ، ونحاول أن نجيدَ لغاتِهم الأجنبية ونتعمق آراءهم الحديثة ونتعرف بحوثهم المعاصرة . ونتنازل عن بعض عاداتنا وتقاليدنا فى سبيل تغذية حضارتنا العلمية والفنية .

إن نتيجة اتصالنا بغيرنا من أمم الغرب هو ما نراه الآن فى أفكارنا وميولنا وما نراه فى علومنا وفلسفتنا ، ثم ما نراه فى موسيقانا وأدبنا وسائر أنواع الفنون . وكذلك كانت نتيجة اتصال البصريين القدماء ؛ ففى الوقت الذى كانوا يتنازلون فيه عن شىء من شخصيتهم القديمة كانوا يضيفون المعالم لتكوين الشخصية الجديدة ، فتلونت عقليتهم بهذا التطور ، وقامت حركتهم العلمية على جذور تمتد أصولها فى الماضى وتنمو إلى آفاق تحمل من الجديد ما يأتى به كل طارئ جديد .

أقرر ذلك ونحن بصدد عرض العناصر الشرقية واليونانية التى كونت العقل البصرى وخططت للعلم لنؤكدَ حقيقةً كبرى فى الأدب ، لأن ثمة صلة قوية بين العقل والفن . أما هذه الحقيقة فهى أن الأدب يتلون بما يتعرض له العقل من مؤثرات ، غير أننا نسرع فنقول هنا إن هذه العناصر يمكن إرجاعها إلى البابليين والأشوريين أو القبط على ما يسميهم العرب ، كما ترجع إلى الهنود والفرس واليونانيين ، وسنقف عند كل طائفة وقفة متأنية من غير إطالة وإسهاب .

أثر النبط :

أما النبط فهم منذ قديم — كأى شعب فى زمانهم — يمزجون بين عقيدتهم ونظراتهم فى الحياة ، كأنما كانوا يريدون أن يحددوا علاقتهم بالخالق وما خلق

على أساس من الفكر . فإذا صحّ ما يقال من أنّ إبراهيم الخليل قد ظهر فيهم فإنهم يكونون — من ثَمّ — بعض من حاول أن يقوم فكرهم ويصلح منه ما اعوج ! وفى ظل ذلك وما يجرى مجراه عرفت للبابليين آراء عرفها من وُجِدَ فى عصرهم من الفرس والهنود . ومن هنا رأينا كثيرين يرون أن أصول الفلسفة اليونانية عرفت فى الشرق ، ثم جاء اليونانيون بما يربط بينها ويبسطها ويعللها التعليل السليم .

فإذا نظرنا إلى العقل البصرى القديم فى ثوبه الدينى فلن يكون فى عملنا شطط ومن قبل فعل ذلك كثيرون ، وهذا الشهرستانى فى حديثه عن « من له شبهة كتاب » يعرض للبابليين والأشوريين كما يقف عند الهنود وأهل فارس ، ويرى أنه كان لهؤلاء نظرات فى كيفية الخلق والإبداع وتسوية المخلوقات فى نظام تحصل منه حكمة الخالق الأزلية وتنفذ فيه مشيئته السرمدية ، وأشار إلى بعض المسالك العلمية التى جاء بها إبراهيم للهداية ، فعرفت له وأتيح لها من البقاء بعده ما حدثنا به الله تعالى فى سورة الأعلى حين قال : « إن هذا لفى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى »[١] .

وقد اختلف الباحثون المحدثون فى النظر إلى هذه الآراء . فمنهم من قال إن عقيدة البابليين كانت روحانية سماوية ، ومنهم من قال إنها إن لم تكن كذلك فهى ليست أقل انحطاطاً من نظرات الكنعانيين الذين هبطوا بآلهتهم إلى الأرض مع ميل كبير إلى تعديدهم وتوزيع اختصاصهم[٢] على أنّ « دى بور » حينما أرخ للفلسفة الإسلامية قال فى حديثه عن كهنة بابل : « لقد تحولت أنظار هؤلاء الكهنة عن الوجود الأرضى المضطرب إلى نظام الأفلاك ، ولم يكونوا كبنى إسرائيل الذين لم يتجاوزوا فى العلم طور التعجب من الكون ، بل كانوا أكثر شبهاً باليونان[٣] .

---

(١) الملل والنحل ١٧٩ (ط . ليبزج سنة ١٩٢٣) .

(٢) The Historians' History; 1,515 .

(٣) تاريخ الفلسفة فى الإسلام ١٠ (ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ط . لجنة التأليف) .

ولا سبيل إلى مقارنة واسعة بين هذه الآراء ، وينبغى على كل حال أن نضع فى تقديرنا عامل الزمن وتطور العقيدة من مرحلة إلى مرحلة ، وليس خطأ أن نقول إنهم مروا فى الدور الذى مرّ فيه الكنعانيون وغيرهم ، حتى إنهم حين جازوا هذا الطور ظلوا على تعديدهم للآلهة ، بل ربما كانوا هم قادة اليونان حين لم يفرقوا آلهتهم عن البشر وجعلوهم يلدون ويعيشون ويتصارعون ثم يقتلون ، وحرصوا إلى جانب ذلك على أن يصوروهم ذوى بأس شديد[١] .

أما ما انتهى إلى البصريين من ذلك كله فليس واضحًا كل الوضوح ، ولكنا نستطيع أن نزعم أن النبط حفظوا شيئًا من تراثهم وتعصبوا لكثير من موروثاته القديمة حتى لنجد آثار ذلك التعصب عند صابئة البطائح ، وكان هؤلاء يخلطون مذاهب اليهود والنصارى بوثنية البابليين وثنوية الفرس ، ولما جاء الإسلام أدخلوا على آرائهم بعض تعاليمه ثم جمعوا طقوسهم ودونوها فى كتاب[٢] . ويثبت ابن النديم للكلدانيين ما يثبته لصابئة « حران » ويرى أنهم قالوا بعلة العالم كما قالوا بالهيولى والعنصر والصورة والعدم والزمان والمكان والحركة ، وتلك مسائل بحثها أرسطو ، ويعدّ هرميس وأغاثاذيمون وأراتى من مفكريهم[٣] ويبدو أن ذلك كان فى أيامهم الأخيرة ، لأن اتجاه هؤلاء كان شديد النضج عظيم النماء .

وليس هذا بالطبع هو كل ما عرفه البصريون عن ذلك التراث ، وإنما هناك أيضًا شريعة حمورابى وسجلات ملوك آشور ، ووجد من كتب الكلدان القديمة مانقله ابن وحشية ، ويقول عنه ابن النديم هو «أحد فصحاء النبط بلغة الكلدانيين» وله كتاب فى الأصنام وكتاب فى أسرار الكواكب وكتاب فى الفلاحة الكبيرة والصغيرة[٤] . وفيما يرويه عن مكتبات العراق ما يدل على معرفة المسلمين بكثير

---

(١) The Historians' History; 1,523

(٢) دكتور مراد كامل فى تاريخ الأدب السريانى ١١ ، ١٢

(٣) الفهرست ٣١٨ و ٣١٩ (ط . ليبزج سنة ١٨٧٢) والملل والنحل ٢٤٠

(٤) الفهرست ٤٣٣ ، ٥٠٤

من تراث البابليين ، ونقل عن أبي سهل بن نوبخت في كتاب النهمطان أنه « كثرت صنوف العلوم وأنواع الكتب ووجوه المسائل والمآخذ التي اشتق منها ما يدل عليه النجوم مما هو كائن من الأمور قبل ظهور أسبابها ومعرفة الناس بها على ما وصف أهل بابل في كتبهم . . . وبقي جل ذلك وأكثره ببابل إلى أن خرج الإسكندر ملك اليونانيين غازياً أرض فارس. . . وقتله دارا واستيلائه على ملكه وهدمه المدائن وإخراجه المجادل المبنية بالشياطين الجبارين والجبابرة وإهلاكه ما كان في صنوف البناء من أنواع العلم الذي كان منقوشاً مكتوباً في صخور ذلك وخشبه ، بهدم ذلك وإحراقه وتفريق مؤتلفه»[١] .

والخلاصة أن ما أودع النبط من موروثاتهم فكر المسلمين غير واضح وإن يكن — فيما يبدو — ليس بالقليل . وسواء عرفه العرب عن طريق الكتب أو عن طريق احتكاكهم بالأهلين ، فنحن نخطئ إذا لم نقف هذه الوقفة عند هذا النوع من التراث .

أثر الهند :

وأما الهنود فقد رأينا أنهم كثروا في البصرة وفي منطقة البطائح . ويقرر القفطي أنهم شاركوا الكلدانيين في عنايتهم بالعلوم، وأنهم كانوا أصحاب حكمة وأخلاق وأدب[٢] وكذلك فعل الجاحظ وقال إن لهم معاني مدونة وكتباً مخلدة لا تضاف إلى رجل معروف[٣] ولو حاولنا تقويم تراث هؤلاء لرأيناه ينحصر في مقالات دينية تتخذ ثوباً فلسفياً ، وبعض رياضيات من حساب وفلك إلى جانب نشاط ملحوظ في الأدب . أما اتجاههم الديني فليس شيء محدد يميزه من الناحية العملية ، ولعل بهذا معنى قول الأستاذ « سيدني » في كتابه الديانات الحية : إن الهندوكية لا يميزها ما يميز الإسلام والمسيحية حتى إنها

---

(١) الفهرست ٣٣١

(٢) أخبار الحكماء ٢٧ ، ٢٦٦

(٣) البيان والتبيين ٣ : ١٤

كثيراً ما تنقصها الشرائع[١] ، ولكن لهم آراء نظرية يضعها كثير من الباحثين إزاء فلسفة اليونان ويطلقون عليها اسم الإلهيات ، وإن كان غيرُهم يرى أنها ترضى الخيال قبل أن ترضى العقل[٢] . والشهرستانى يصرح بأن كان فيهم دهرية وثنوية على مذهب الصابئة ، وقالوا بالروحانيات والهياكل وعبدوا الأصنام كما ظهر فيهم « حكماء على طريق اليونانيين علماً وعملاً »[٣] .

ويبدو أن آثار الهند رسبت فى عقلية سكان البصرة الذين أسلموا عن طريقين : أحدهما اتصال العرب بمن وجدوا من الهنود فى إقليم البطائح ، والآخر اتصالهم بهم عن طريق الفتح والتجارة . ومنذ خلافة عثمان وأنظار المسلمين تتجه إلى غزو بلادهم وأرسلت الحملات إليهم تباعاً حتى وجه الحجاج محمد بن القاسم يفتحها عام ٩١ للهجرة فى خلافة الوليد فنجح فى الاستيلاء على السند . ثم توسع هشام بن عمرو التغلبى سنة ١٤٢ فى الفتح أيام المنصور ، كما سير المهدى جيشاً إليها عام ١٥٩ وكان فيه الربيع بن صبيح البصرى أحد المحدثين ، بل أول من دونوا الحديث[٤] .

وليس يعنينا ذلك التاريخ الآن ، وإنما نريد أن نقول إن أثر الهنود فى المسلمين كان ملموساً ، ووجدت فرقهم فى آرائهم ما تتشوف إليه ، وأصاب المعتزلة البصريون منها شيئاً ، كما تقبلها من بعض وجوهها الشيعة ، وانكب عليها بدافع من التدين الباحثون عن الحكمة . ولأجل ذلك لم يسرف البيرونى حين أطال وصفه للفلسفة الدينية عند الهنود ، وأكثر المقارنة بين عقائدهم وعقائد الإسلام ووقفنا على وجوه الاختلاف بينها وبين الفلسفة اليونانية والأفلاطونية الحديثة .

ويرى البغدادى فى كتابه « الفرق » أن اتفاق البراهمة والمعتزلة فى تحكيم

---

(١) Sydney Cave : Living Religioun. 13 .

(٢) أحمد أمين فى ضحى الإسلام ١ : ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

(٣) الملل والنحل ٤٤٤ .

(٤) تاريخ ابن الأثير ٣ : ١٧ .

العقل وجعله أساساً لمعرفة الله دليل على تأثر المتكلمين بالهنود ، ويزعم أنه لولا خوف المعتزلة من السيف لأنكر بعضهم النبوة إنكار البراهمة لها[١]. ويقول الشهرستانى فى الملل والنحل إنهم «هم المخصوصون بنفى النبوات أصلاً ورأساً»[٢] .

وكان للبراهمة رأى فى ذات الله وفى الإنسان وأفعاله تتفق إلى حد كبير مع آراء المعتزلة ، ويجوز أنهم تأثروها كما يجوز أنهم تأثروا غيرها ، ولكن وجوه الشبه بين الفريقين ظاهرة تلفت النظر حقاً[٣]. إن روح الهنود وانعزالهم للتفكير والتدبير — على ما هو معروف عنهم — وانتشار النساك بينهم وأخذهم أنفسهم بشىء من الحرمان والقسوة والتعمق ، كل ذلك ربما لعب دوره الخطير فى تاريخ رهبان النصارى ثم فى التصوف الإسلامى . وما أشك فى أن المتصوفة حين ذهبوا يعطلون حواسهم للوصول إلى الله إنما كانوا يجنحون إلى زهاد الهند ويسيرون فى الطريق الذى يسميه البيرونى « باتنجل » الهندى[٤] . وقد يقال إنهم اتصلوا بآراء الأفلاطونية الجديدة، وهذا حق بخاصة عند ما جعلوا للوجود سلسلة مراتب ، واتخذوا لأنفسهم مرتبة يتصلون فيها بالله . وعرض البيرونى لهذا الجانب فقال : إن حكماء الهنود المسلمين اتفقوا على أن المنصرف بكليته إلى العلة الأولى يتشبه بها ويتحد فيها عند ترك الوسائط وطرح العقائد[٥] .

وأما القول بالتناسخ فهو من أخص خصائص الهنود ، بل ربما كان هو علم النحلة الهندية كما قال البيرونى ، فمن لم يتنحله لم يكن منهم ولا يعد من جملتهم[٦] . وقال الشهرستانى فى ملله : « وتناسخية الهند أشد اعتقاداً للتناسخ من غيرهم»[٧] . وشرح العلماء نظريتهم فيه شرحاً مستطيلاً يخرج بنا عن القصد لو عرضنا

---

(١) الفرق بين الفرق ٧٩
(٢) الملل والنحل ٤٤٥
(٣) تحقيق ما للهند ٢٤ ، ٥١ والملل والنحل ٤٤٥ ، ٤٤٦
(٤) تحقيق ما للهند ٤٣
(٥) نفسه ١٦
(٦) المرجع السابق ٢٤
(٧) الملل والنحل ٤٤٩

له ، ولكن ابن الجوزى يتكلم عنه فى إيجاز فيقول إن نفس المحسن بعد موته تذهب إلى الهيولى المركب فإن وجد فيها شوباً لم يبقها عنده فى العالم البسيط وردها إلى الهيولى الأصغر فيبعث بها هذا إلى الرب الأصغر ، ويرسلها هذا بدوره فى شعاع الشمس إلى الأرض بقلةً خسيسة يأكلها الإنسان فتتحول إنساناً ويولد ثانية فى العالم . على أن المسيئين يذهبون مباشرة أرواحًا إلى الهيولى الأصغر فيعكسها إلى الأرض وتصير حشائش يأكلها البهائم ، فتصير الروح فى بهيمة ثم تنسخ فى أخرى قبل أن تردّ إلى صورة الإنس فى ألف عام[١].

ويقول البغدادى إن بعض فرق المسلمين أسرف فى القول بالتناسخ إسرافًا شديداً ومن هؤلاء جماعة من القدرية والمعتزلة ، أمثال أحمد بن حائط وأحمد بن أيوب وأحمد بن محمد القحطى وابن أبى العوجاء[٢]. وقبل هؤلاء كان السبأية وقيل إن زعيمهم عبد الله بن سبأ — وكان قائد بنى العمور من عبد القيس فى وقعة الجمل ويعيش فى البصرة — قال لعلى : أنت أنت ! أى أنت الإله ، وتبعته فرقة قالت بتناسخ الجزء الإلهى فى الأئمة بعد على ، وقال نحو هذا غالية الشيعة[٣].

وإلى جانب ذلك كان الهنود أصحاب فلك ونجوم ، فعرف العرب ذلك وما يتصل به من حساب واختلطت هذه المعرفة — فى البصرة أولا — بالمذهب الفيثاغورى ، فى حين وجد أطباء فى العصر الإسلامى مثلوا الطب الهندى كصالح بن بهلة أيام الرشيد ، ورى الجاحظ عن معمر أبى الأشعث أن يحيى ابن خالد جلب أطباء من الهند مثل منكة وبازيكر وقلبر قل وسندباذ[٤]. ويلاحظ أن الطب عندهم عاش متصلاً بالتنجيم حتى كان الطبيب أخًا للمنجم ، فلم يكن بدّ للعرب من أن يتعرفوه ويخلطوه بالسحر ، وأصبح طبيب البصرة أو بغداد

---

(١) نقد العلم والعلماء ٨٥ (ط . مصر سنة ١٣٤٠) .

(٢) الفرق ١٦٢ ، ١٦٣

(٣) الفصل فى الملل والنحل ٢ : ١٠ ، ١١

(٤) البيان والتبيين ١ : ٧٨

يكتفى بما انتهى إليه من التعاويذ السحرية تلعب فيها أرقام الحساب دوراً كبيراً .

وبعد ، فما حظ الأدب عند الهنود ؟

يُحدّثنا عن ذلك البيرونى حديثًا طويلاً لا نعرض له هنا ، ولكنى أكتفى بأن أثبت أن البيرونى دهش لعناية الهنود بالشعر إلى حد أنهم نظموا الرياضة والفلك ، وهو لا يستبعد أن يكون الخليل بن أحمد قد سمع أن لهم موازين فى الأشعار ، فبحث عن مثلها فى الشعر العربى[١] . ولعل كثيراً من أدباء العرب وعلمائهم كانوا يقفون عند هذه الكتب التى أخبرنا الجاحظ أنها لا تضاف إلى أحد . وينقلون عنها الأساطير والحكم والأمثال ، ويطلقون عليها كما فعل ابن قتيبة فى عيون الأخبار « كتاب الهند » . ويروى الجاحظ أنّ مَعْمراً سأل بهلة الهندى عن البلاغة ، فقال : هى عندنا فى صحيفة مكتوبة لا أحسن ترجمتها لك ، قال : فلقيت بتلك الصحيفة التراجمة فإذا أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة . . . إلخ[٢] .

والمطلع على « كتاب الهند » بالذات يلحظ أن ما يرويه ابنُ قُتيبةَ فيه لا يخرج عما عُرِف به العربُ من حكمة موجزة ، كأن يقال فيه « ليس من خلّة يُمدح بها الغنى إلا ذُمّ بها الفقير . فإن كان شجاعًا قيل أهوج وإن كان وقوراً قيل بليد وإن كان لسناً قيل مهزار وإن كان زميتًا قيل عيى »، ويقال : « العالم إذا اغترب فمعه من علمه كاف كالأسد معه قوّته التى يعيش بها حيث تَوجّهَ »[٣] ، وهكذا مما يشير من بعيد أو قريب إلى تأثر الأدب العربى بما قاله الهنود حتى إذا قرأنا قول أبى نواس مثلاً[٤] :

سَخنتَ من شدة البرودة حتّى صرتَ عندى كأنك النارُ

---

(١) تحقيق ما للهند ١٧

(٢) البيان والتبيين ١ : ٧٩

(٣) عيون الأخبار ١ : ٢٣٩

(٤) عيون الأخبار ٢ : ١٢

لا يعجب السامعون من صفتى كذلك الثلج باردٌ حارُ

لا نستبعد أن يكون تأثر قول بعض الهنود من أن « البارد إذا أفرط فى حكه عاد حارًّا مؤذيًا »، قال ابن قتيبة : « وهذا الشعر يدل على نظره فى علم الطبائع لأن الهند تزعم أن الشيء إذا أفرط فى البرد عاد حارًّا مؤذيًا »[١] .

وإن ما نقرؤه من كتب العجائب فى الأدب العربى كألف ليلة وليلة متأثر بالقصص الهندى ؛ فقصة السندباد مثلاً يرجعها ابنُ النديم إلى الهند ، مثلها فى ذلك مثل كليلة ودمنة « والخلف فيه — أى فى كتاب السندباد — مثل الخلف فى كليلة ودمنة ، والأقرب إلى الحق أن تكون الهند صنفته »[٢] .

وكليلة ودمنة — على ما يبدو — محمول فى معظمه على الهند ، يدل على ذلك أسلوبُ صياغتِه وَخُلُوُّه مما يمس عقائد البراهمة وتقاليدهم الخاصة ، والجهلُ — تاريخيًّا — بالأشخاص الذين قام الكتاب على أكتافهم أمثال بيدبا ودبشليم ورئيس البراهمة الذى وصفه ابن الشاه الفارسى فى المقدمة .

غاية ما فى الأمر أنَّ ابنَ المقفع احتذى فى الكتاب القَصَص الهندىَّ ، وأورد بعضَه حريصًا على ألا يضمنه شيئًا يعارض به العقيدة الإسلامية . والكتاب من هنا أكبر دليل على ما نقول من تأثر العرب قصص الهنود[٣] .

أثر الفرس :

أما الفرس فأثرهم فى البصرة وبطائحها أكبر مما كان للهنود ولاسيما فيما يتصل بالحياة الاجتماعية ، وقد كانت البصرة بحق المجال الكبير لنشاطهم فى العصر الإسلامى بخاصة ؛ فهى لم تكن قريبة قرب الكوفة من مركز السلطان . كما لم تكن

---

(١) عيون الأخبار ٢ : ١٢١ .

(٢) الفهرست ٣٠٥ وفى قول ابن النديم نظر .

(٣) لم يختلف قوم فى شيء كما اختلفوا فى « كليلة ودمنة » فما قرأ ما كتبه عن ابن المقفع الدكتور عبد اللطيف حمزة ، والأستاذ محمد كرد فى كنوز الأجداد ١٠٥ ، ١٠٦ (ط . لجنة التأليف سنة ١٩٣٧) .

بعيدة بعد تلك المدينة عن خراسان ، ومنذ قديم والعناصر الفارسية ولا سيما الخراسانية كثيرة النزوح إلى منطقة البصرة ، وكان ذلك عن طريق الغزوات القديمة ثم غزوات الإشكانيين والساسانيين .

ويرى قوم أن الثقافة الفارسية لم يتح لها حظ الانتشار قبل تأسيس بغداد وإنشاء العباسيين منصب الوزير على النمط الفارسي[١]. وليس هذا صحيحاً لأنه يتنافى مع ما قدمت ومع ما قيل وثبت من أن حضارة الفرس كانت غالبة على إقليم العراق منذ عهد الساسانيين واستمرت حتى كاد يكتب لها التفرد فى ظل العباسيين . ومهما نبحث عن أصل العبث والمجون اللذين انتهيا إلى الزندقة أيام هؤلاء فلن نستطيع أن نضع أمام الفرس عاملا فى قوته . والعلاّمة طه حسين يرى هذه النزعة ثورة على العرب وعاداتهم وأخلاقهم ودينهم ، أو هى « ضرب من هذا السخط ومن الكلف بحياة الفرس وعاداتهم وحضاراتهم وما ذاع فيهم من عقيدة دينية»[٢] .

بل أستطيع أن أزعم أن كثيراً من أدباء البصرة تأثروا هذه الحياة ؛ فكان بشار وأبو نواس والحسين الخليع وابن المقفع وسيبويه ينزعون إلى الترف واللذة ، ومنهم من كان يهدم القديم ويكلف بالشك والمجون ويغرق فى اللهو والعبث ، وكانوا جميعاً يعقدون لأنفسهم فى أنحاء البصرة المجالس والأندية حتى كادوا يستأثرون بكل النفوس ، مما اضطر الخلفاء من بنى العباس إلى أن يشنوا الحرب عليهم ، لا سيما بعد أن راحوا يتلاعبون بالسياسة .

على أنى أرجو ألا أتورط وأردّ للفرس كل شىء ، فالمعروف أن ما نقل عنهم من الآثار المكتوبة قليل جداً بالنسبة إلى ما نقل عن غيرهم . وواضح أنهم حين التقوا بالعرب فى ظل الإسلام ، لم يكن لهم من الأدب ما نستطيع أن نقارنه بأدب اليونان أو غير اليونان ، وإذا كان ابن النديم يعدد لنا من كتبهم ما عرف به ابن

(١) أحمد أمين فى ضحى الإسلام ١ : ١٧٢ ، ١٨٠ .

(٢) حديث الأربعاء ١٦٢ .

المقفع ثم كتاب « هزار دستان ، كتاب بوستاس وفينلوس ، كتاب مجد خسرو ، كتاب المربين ، كتاب خرافة ونزهة ، كتاب العرب والثعلب ، كتاب نمرود ملك بابل ، كتاب خليل ودعد »[١] فينبغى ألا نخدع ويجب ألا نجعل لتلك الكتب ما يكون لها من الأثر الكبير الذى يحلو للبعض إضافته للفرس ، فضلاً عن أن من هذه الكتب فيما روى عن ابن النديم ما لم يكتب قبل الإسلام أو ما يدل على أنها منحولة ؛ فبوستاس وفينلوس لا يبعد أن يكونا يونانيين ، وخليل ودعد عربيان وكتاب نمرود قد يكون بدوره مترجماً ، بل إن ابن النديم يذكره فى موضع آخر فيما ذكر من كتب ملوك بابل[٢].

أما التراث الفكرى للفرس فقد كان موضع عناية كثير من البصريين ولا سيما المعتزلة ؛ فلقد تأثر هؤلاء الزردشتية فى الجبر والاختيار ، واتفقوا معهم على أن الله لا يفعل الشر ولا يجوز أن ينسب إليه الشر[٣] . ومن المقرر أن تعاليم الفرس وما فيها من ثنوية — وكانوا يقولون بالنور والظلمة — قد عقدت الحياة تعقيداً لا سبيل إلى إنكاره ونوّعت من فرقهم وطوائفهم .

ولقد كان فى احتكاك الروم بالفرس فى فجر المسيحية ما واءم بين العقيدتين وقارب بينهما ، حتى إذا أظهر « مرقيون » بحران مقالته الدينية كانت عبارة عن معتقدات فارسية عن الخير والشر متأثرة بالمسيحية والآراء اليونانية . وشهد القرن الثانى الميلادى جدالاً عنيفاً أثاره مرقيوس وتصدّى له ابن ديصان أسقف الرها وعارضه كما عارض غيره ، ولكنه انتهى إلى ما انتهى إليه خصمه وقال بالضياء والظلام فتعرض له رجال الكنيسة وأنكروا عليه مسيحيته ورموه بالهرطقة . غير أنهم لم يستطيعوا التغلب على آرائه التى انتهت بأتباعه إلى أن يقولوا بإلهين : إله النور وإله الظلمة ، ويحدثنا ابن النديم بأن هؤلاء استقروا فى البصرة والبطائح

---

(١) الفهرست ٤٢٤

(٢) السابق ٤٢٥

(٣) الملل والنحل ١٨٦

وواسط حتى القرن الثامن الميلادى[١] .

وفى أوائل القرن الثالث الميلادى ظهر « مانى » بتعاليم كانت مزيجا من الزردشتية والديصانية والمرقونية . ويقول ابن النديم إنها بقيت حتى أيام الوليد بن عبد الملك واشتدت فى البصرة فى ولاية خالد القسرى ، وعدّ من رؤسائها ابن أبى العوجاء ، وصالح بن عبد القدوس وابن طالوت وأبو شاكر وهم من المتكلمين ، وبشار بن برد وسلم الخاسر من الشعراء[٢] .

أما أثر ذلك الواضح فيظهر فى طائفة المتكلمين الإسلاميين وفى معتزلة البصرة بصفة خاصة . ويقال إن النظام تشرب آراء الثنوية فى عمق ، لأنه عاشر فى شبابه قومًا منهم فأمكنه ذلك من أن يردّ عليهم[٣] . والواقع أنه كان يوقع بهم ببراهين جدلية وكان ينجح ، ولكن كثيرين فيما بعد رموه بالكفر لأنه وافقهم حين ذهب إلى أن النور من شأنه أن يعلو كل شىء حتى يتصل بالنور الأعلى ، وتصدى الخياط للدفاع عنه وبيان وجوه مخالفته لهم[٤] .

ولكن المتكلمين كانوا أكثر تحمسًا فى الردّ على الدهرية لأن آراءهم كانت صريحة فى دعوتها إلى الإلحاد ؛ فهم يرون أن الدهرية هو المبدأ الأسمى ، والعالم مادة قديمة ليس لها علة خارجة ولا قوة تنظمها ، والدهر وحده عين القدر وحركة الأفلاك ، وما يرى هو الموجود وما وراء المادة هباء أو خرافة . ولقد نال هذا المذهب إعجاب أهل النظر ، وأخذ به يزدجرد ملكهم واحتل مكانه فى الأدب الفارسى وفى أفكار العامة إلى ما بعد الفتح الإسلامى[٥] .

والحق أن الدهرية ظلوا فى البصرة — لمدة طويلة — ممثلين طابعًا عقليًّا

---

(١) الفهرست ١٣٩ ، ٣٣٨ ثم راجع تاريخ ابن الأثير ١ : ١٤٣ ، ١٤٤ وتاريخ الأدب السريانى ٥٧ ومادة « ديصان » فى دائرة المعارف .

(٢) الفهرست ٣٣٨ .

(٣) الفرق ٧٩ والإسفرايينى فى التبصير فى الدين ٤٣ (ط . مكتب نشر الثقافة سنة ١٩٤٠)

(٤) الانتصار ٣٧ — ٤٠ (ط . دار الكتب والوثائق القومية سنة ١٩٢٥) والفرق ٨٢ وما بعدها .

(٥) الفرق ١٧٧ وما بعدها ، ونقد العلم والعلماء ٤٤ ، ٤٨ ، ١٧٧ وما بعدها .

خالصًا ، وكانت نظرتهم البعيدة عن المجال الديني ما شجعهم على أن يوغلوا بأفكارهم ، فهيأ لهم ذلك حرية لم يجدها غيرهم ، حتى المعتزلة الذين تولوا الرد عليهم ، لأن هؤلاء كانوا مرتبطين بنصوص القرآن . ومع ذلك فقد كان المعتزلة أشبه بالفلاسفة المثاليين الذين لم يرتاحوا إلى دعوة الدهرية المادية وإفراط أصحابها فى الإلحاد . والعجيب أن دفاع المعتزلة لم يجدهم نفعًا ، وأثار عليهم عاصفة من النقد حتى اتهموا بالكفر . ومثل هؤلاء النظام ، إذ تعرض له البغدادى فى رأيه عن « الكمون فى الأجسام » وقال عنه إنه أكثر شرًّا من قول الدهرية الذين زعموا أن الأعراض كلها كامنة فى الأجسام ، وذلك إلحاد وكفر يؤدى إلى الضلالة (١) . وتعرض الإسفرايني لواصل بن عطاء وجرحه كما تعرض لمعمر بن عباد وأتباعه ورماهم بالضلال (٢) . وشن ابن قتيبة حملة عاصفة على المتكلمين بعامة والمعتزلة بخاصة ودافع عن أصحاب الحديث ، و قف عند أبى هذيل العلاف ورماه بالإفك والكذب ، وسخر بالجاحظ ورماه بالذبذبة فى العقائد والاستهزاء بالدين ، وتلبث طويلاً عند النظام وكشف عن كثير من فضائحه ، وأشار إلى كذبه وسوء خلقه (٣) .

وبعد ، فينبغي أن نقول إننا لو أردنا أن نعرف السبب الأول فى وجود فرق المتكلمين لم يكن أمامنا إلا ثنوية الفرس . وأما السبب فى الزنادقة وما يجرى فى فلكها من عبث ومجون وتأثر الأدباء بكل ذلك ، فأكبر من أن ننكر أثر الفرس فيه (٤) .

---

(١) الفرق ٨٦ ، ٨٧

(٢) التبصير ٤٠ ، ٤٥

(٣) كتاب تأويل مختلف الحديث ٢٠ ، ٢١ ، ٥٣ ، ٧٢ ، ٧٣ (ط . مصر سنة ١٣٢٦)

(٤) نقلا بلا عن كريستنسن وماسينيون وبوخنر وفاجدا وغيرهم آراء قيمة فى أنواع المجوسية كالمانوية والمزدكية التى كانت ديانة الفرس ، وقرر أن البصريين كانوا على صلة تامة بالمزدكية وأخذت بها شخصيات مثقفة متكلمة وشخصيات أدبية كعبد الكريم بن أبى العوجاء والجعد بن درهم وسرى ذلك بعد ، واتهم بها النواسى وأصحابه كأبان اللاحقى (راجع أيضاً مادة زنديق فى دائرة المعارف الإسلامية ٤ : ٢٩٨ وقد كتبها ماسينيون ، والساسانيون تأليف « Christensen » صفحة ٣٠ وما بعدها ، ١٤١ وما بعدها والصابئة تأليف بدرسن « Pedersen » صفحة ٣٨٤) .

أثر اليونان :

ونقرر بعد ذلك أنه مهما يكن من تأثر البصريين بالتراث الشرقى وبالعقلية الدينية السامية ، فإن تأثرَهُم — كغيرهم — بالفلسفة اليونانية وبخاصة الأفلاطونية الجديدة كان أعظم وأشد . ولا حاجة إلى أن نعود فنقول إن تراث اليونان عرف منذ قديم فى العراق ثم انتشر بين النصارى والسريان والأطباء . وحين كان الرومان يعملون وسعهم فى نشر المسيحية تعَرَّضُوا لخصومات الثنوية والدهرية من الفرس ، واضطروا إلى أن يدخلوا فى أنواع من الجَدَل يَرُدُّون به على خصومهم . وقد اصطبغ هذا الجدل بالثقافة اليونانية ، ومرة أخرى لجأ النصارى إلى الفلسفة اليونانية ، وذلك حين وقفوا أمام المسلمين .

وكانت حَرَّان فى شمالى العراق تضطرب بوثنية السابيين القديمة وبآراء اليونانيين الذين نزعوا إليها فى العصر الوثنى ، وشاعت فيها إلى جانب تلك الرواسب البابلية والأشورية والآرامية أبحاث رياضية فلكية ونظريات الفيثاغورية والأفلاطونية الحديثة ، ثم دَوَّنوا عقيدتهم ليكونوا من أهل الكتاب ، ويروى ابنُ النديم أن هؤلاء سُمُّوا بالصابئة أيام المأمون وذلك فى قصة طويلة يمكن أن يرجع إليها فى كتاب ابن النديم .

ونحن إذ نذكر حَرَّانَ ينبغى أن نذكر أيضًا الرها والأهواز ، وكانت اللغة الرهوية فى العصر الوثنى تسمى الآرامية ثم سميت منذ القرن الثالث الميلادى بالسريانية ، وبها كتبت معظم الآثار اليونانية القديمة[١] أما الأهواز فقد نقلت إليها عناصر رومانية أيام سابور فصارت مركزاً للنساطرة الذين عنوا بثقافة اليونانيين واهتموا بترجمة كتبهم[٢] ، وقد صارت من أعظم حواضر العباسيين .

والثقافة اليونانية حين اتصلت بالعقل الشرقى أنتجت لنا تراثًا هو ما نعبر عنه

---

(١) انظر تاريخ الأدب السريانى ص ١٣ ، ١٤ ، ١٢٣ .

(٢) O'Leary : Arabic Thoughts; p. 41, 44.57 .

بالتراث الهلينى ، يمتاز بطابعه العقلى وببعده عن النظر الدينى الذى يقوم على التسليم بالغيب ! ويبدو أنّ المسلمين وجدوا غناء أى غناء فيها بعامة ، وفى الأفلاطونية الجديدة بخاصة لجنوحها إلى الإلهام الروحى أحياناً مما يلائم العقل الشرقى .

وقد ساعد على تقبل البصريين هذا النوع من النظر العقلى تلك المناقشات التى أودعها أصحاب الديانات مجالس العلم وحلقات الدرس والمناظرة . ولقد كان فى البصرة طبيب يقال له ماسرجويه ترجم لعمر بن عبد العزيز كتاب أهرن القس فى الطب عن السريانية ، وكان لهذا الرجل كتابان الأول فى قوى الأطعمة والثانى فى قوى العقاقير ، واستطاع هو وأمثاله أن يضعوا أسس الحركة الفلسفية فى البصرة . ومع ذلك فقد كان لبعض العرب الخلص وأمرائهم من أمثال خالد بن يزيد بن معاوية بعض الفضل[١] .

ونلحظ على أية حال أن ما نقله ماسرجويه لم يكن أول نقل عرفناه وإنما كان ذلك على يد خالد بن يزيد وأعانه عليه اصطفن الإسكندرى . ويقول ابن النديم « إن سالماً كاتب هشام بن عبد الملك نَقَلَ بعض رسائل أرسطو إلى العربية »[٢] ، حتى ظهر ابن المقفع فإذا هو يلعب دوراً كبيراً فى الترجمة سواء من الفارسية أو اليونانية ، وصاعد الأندلسى ينبئنا أنه ترجم عن اليونانية كتب أرسطو المنطقية الثلاثة أيام أبى جعفر المنصور وهى قاطاغورياس وبارى أرميناس وأنولوطيقا ، وذكر أنه لم يكن ترجم من هذا المنطق إلى أيام ابن المقفع سوى الكتاب الأول « وترجم مع ذلك المدخل المعروف بإيساغوجى لفرفريوس الصورى »[٣] .

ولا نريد أن نقول إن البصرة عرفت الفلسفة والمنطق فى ذلك الوقت فقط ، وإنما نقول إنها عرفتهما أيضاً منذ عرفت خلاف الفرق المتكلمة ، ومنذ اتخذت

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٢١٣ (سندوبى ١٩٢٦) .

(٢) الفهرست ص ١٧١

(٣) طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ٤٩ (ط . بيروت سنة ١٩١٢) .

مركزاً للأحداث الخطيرة ، على الرغم من أن طابع هذه الأحداث كان دينياً قبل كل شيء . والمشكلة فى الأصل نبتت منذ «صفين» يوم قتل المسلمون مسلمين فواجه العالم الإسلامى هذ السؤال الضخم لأول مرة : متى يكفر المسلم ؟ أيظل مسلماً أم يعد كافراً من يرتكب الكبيرة ؟ والحق أن الأحزاب السياسية كانت تظهر فى صورة فرق دينية لتستعين بذلك على جذب الأنصار . وكانت هذه الفرق السياسية الدينية تعتمد على المحاجة والمجادلة إلى جانب ما تلجأ إليه من عنف ما وسعها إلى ذلك السبيل . ورأيناها تأخذ أجزاء متفرقة من مؤلفات أرسطو ومن تعاليم أفلاطون ممتزجة بالمذهب الفيثاغورى ، ومن تعاليم الرواقيين ، ثم من آراء علماء التنجيم والكيمياء ! ولم يكن يعنيها شيء بقدر ما كان يعنيها الغلب السياسى ، وفى سبيل ذلك أوّلت القرآن تأويلاً خاصًّا ، وخرجت به عما يرمى إليه ، وطرقت مسائلَ دقيقةً خطيرة ً فاقترب بعضُها من الوثنيين وَصَبَأَ بعضُها الآخر ، حتى ادَّعى لرؤسائه الألوهية أحيانًا والنبوة أحيانًا أخرى .

وقد شهدت البصرة أول اختلاف حينما ثارت فيها العثمانية ، ثم صارت مركزاً لخلاف القدرية فى القدر والاستطاعة فوجد فيها معبد الجهنى أول من تكلم فى القدر [1] فقتله الحجاج كما وجد بعده الجعد بن درهم فذبحه خالد القسرى. وفى الوقت نفسه كانت تتعرض لاختلافات الخوارج وصارت مسرحًا لكثير من فرقها فشب فيها الخلافُ وجادل بعضها بعضًا كما جادلوا مخالفيهم من أصحاب الفرق الأخرى ، فغذوا العقلية البصرية بطائفة خطيرة من الآراء . وظهر المعتزلة فدَوّى المسجد الجامع بخلاف واصل للحسن البصرى حول القدر وفى المنزلة بين المنزلتين ، وانضم عمرو بن عبيد إلى واصل ، ثم اتسعت الدائرة فوُجِدَت النظامية والهذيلية والحائطية والجاحظية وغيرها ، ومثل هؤلاء أروع نشاط عقلى فى الحياة البصرية حتى لقد اعتبروا بحق فلاسفة .

---

(١) قيل غير ذلك ، والقدر على أية حال ذو شقين ؛ لدى الله علمه وتقديره وهم ينفونه عنه ، ولدى الإنسان قدرته أو إرادته فيما يفعل . والقدرية ضد الجبرية التى تنفى إرادة الإنسان وتنفى « الفعل » حقيقة عنه .

ومع ذلك فنحن فى حاجة إلى أن نحدد تلك العناصرَ التى أورثها اليونان العقلية العربية، فليس يكفى أن نقول إن التراث اليونانى مَثَّلَ فيها الطابع العقلى الخالص . ونستطيع على أية حال فى سهولة أن نميز الجوانب اليونانية فى آراء تلك الفرق التى عُرِفَتْ بها البصرة .

فالقدرية مثلا نرى أصول فكرتهم عند الرواقيين كما رأينا روحها عند الهنود ؛ ويقول الرواقيون إن للإنسان إرادة حرة يصدر بها أفعاله، ولكنه مع ذلك وجد فى عالم تحكمه قوانين لا تلين ، ومن ثم ليس هناك قانون خلقى يحكمه . بل هو خاضع لقانون الطبيعة نفسها ، وعلى ذلك لا شىء يضاف إلى الله من حيث إنه يريد أمراً للإنسان . ويرى بعض الباحثين الغربيين أن ابن ديصان كان أحد هؤلاء الذين نقلوا تلك الفكرة إلى متكلمى الإسلام وفلاسفتهم[١] ونحن لا نستبعد ذلك عن مفكرى البصرة ، لأنا رأينا أن الديصانية كانوا منتشرين فى إقليم البطائح لمدة طويلة فى الإسلام ، وليس بعيداً أن يكون القدرية الذين قالوا بالضرورة التى يخضع لها كلُّ شىء والذين نفَوْا القدرَ عن الله وأثبتوه للبشر تأثروا بهم ، ولما تكونت فرقة المعتزلة اهتموا بآرائهم لما فيها ما يوافق قولهم فى الإرادة وكيف أنها لا تضاف إلى الله على الحقيقة .

والأمر على أية حال ليس يقينًا ، ذلك أن القول بالقدر قديم . . عرفه الهنود ، وعرفته الثنوية ، كما عرفته النسطورية . ويحدثنا الشهرستانى أن ربانيي اليهود أشبهوا المعتزلة فى قولهم بالقدر[٢] وهذا يجعلنا لا نسرف فى إرجاع أصول الفكرة إلى طائفة معينة . على أنَّا لم نذكر ذلك إلا إتباعًا لما يذهب إليه الباحثون حتى نقف على وجهة نظرهم، وحتى نرى من قرب أن كثيراً من متكلمى البصرة لم يفتهم نظر اليونانيين الفلسفى .

أما عن الإرادة التى قال المعتزلة من أجلها بالقدر وتبعهم فيها الزيدية

---

(١) نقل ذلك أبو ريدة عن فورلانى وغيره فى كتاب « إبراهيم بن سيار النظام » ٧٧ (ط . القاهرة سنة ١٩٤٦) .

(٢) الملل والنحل ١٦٤ .

ـشيعة البصرة من بكر وعبد القيس ـ فلا تخرج عما قال به كل من أنكساجوراس وطاليس وأنبادوقليس. ويشرح الأشعرى فكرة المعتزلة العامة عنها، وهى لا تخرج عن أنهم قالوا إن الوصف لله سبحانه بأنه مريد من صفات الفعل ، وزعم النظام أن الإرادة هى المراد « كما أن الخلق والتكوين والابتداء هى المخلوق والمكوّن والمبتدأ »[١] .

وذكر البغدادى أنهم قالوا إن الله لا يقدر على الظلم والكذب أو قد يقدر عليهما ولكنه لا يفعلهما لقبحهما وغناه عنهما، بل ذكر أنهم زعموا أنه تعالى لا يقدر على مقدورات عباده ولا على مقدوراته الأخرى[٢] .

وعلى الرغم من أن ثمة من يقول إن هذا الاتجاه موجود أصلا عند الرواقيين وإن المعتزلة تأثروهم ، فإننا نلحظ أن هناك فروقاً كبيرة وقف عندها المشتغلون بالفلسفة والكلام[٤] ويرى شوقى ضيف أن فكرة الإرادة كان الوساطة فيها النساطرة وذلك حين يقول : « وكلنا نعرف المدرسة العقلية التى كان من أهم دعائمها الحسن البصرى وتلميذه واصل ، وهى المدرسة التى أسست فى البصرة والتى كانت تقول بحرية الإرادة . فليس من شك فى أن هناك شبهاً كبيراً بين هذه المدرسة وبين مدارس النساطرة اللاهوتية وما كانت تتجادل فيه تحت تأثير ما تسرب إليهم من ثقافة هيلينية »[٣] .

وقد شغلت هاتان المسألتان ـ الجبر والإرادة ـ أهل السنة وأجمعوا على أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لا يكون ، وعلى أنه خلق الشر كما خلق الخير[٤]. إلا أن هذا لم يمنع القدرية وخلفاءهم المعتزلة من المجاهرة بآرائهم ومن أن يتعرضوا

---

(١) انظر مقالات الإسلاميين ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٣٦٥ .

(٢) الفرق ١٠٢ ، ٢١٠ وهنا نلاحظ وجه شبه بين المعتزلة والقدرية !

(٣) كتاب « إبراهيم بن سيار النظام » ٨٥ .

(٤) التطور والتجديد ١٦ وأما قوله « ثقافة هيلينية » فأولى منه أن يكون « ثقافة يونانية جعلوها هم هلينية » .

(٥) تأويل مختلف الحديث ١٩ .

لخاصمتهم ويتخذوا الجدل — مستندين إلى منطق أرسطو غالباً — أداة للغلبة والفوز .

أما أصحاب الذرة أمثال أنكسا جوراس وديموقريطس فكانوا فى الحق مادة ثَرَّةً لمتكلمى البصرة ، وكانت نظريتهم فى الكون ومدبره معيناً ودافقًا يجد فيه المعتزلة دليلاً على حدوث العالم . وقد قال أصحاب الذرة إن العالم كله جواهر فردة متجزئة إلى ما لا نهاية ، وبينها جميعاً خلاء تتحرك فيه دون أن يتداخل بعضها فى بعض ، وكل تغير فيها مرجعه إلى عقل يصل ويفصل ويحرك ويسكن .

ولما تعرَّض المتكلون لمشكلة الخلق وجدوا السبيلَ ممهدةً ليقولوا بأنَّ تلك الجواهرَ هى الوجودُ ، وما ندركه فيها من العالم المحسوس أعراضٌ وتغيرُها دليلُ حدوثها وكونها مخلوقة لله ، ولكنا نسأل : هل كان المسلمون يَرَوْن الكونَ حقًّا أجزاء منقسمةً بالفعل أو هى منقسمة بالضرورة ؟ إنهم لا يوضحون ذلك ولكنا نرى واحداً كالبغدادى يتصدى للنظام فنحس فيما يذهب إليه أنَّ القسمة عند المعتزلة قسمةٌ بالفعل ، فهو يقولُ : الفضيحة العاشرة من فضائحه قوله بانقسام كل جزء لا إلى نهاية ، وفى ضمن هذا القول إحالة كون الله محيطًا بآخر العالم عالمًا به ، وذلك يناقض قول الله تعالى : « وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عدداً »(١) .

ومثل ذلك يقوله فى الردّ على معمر بن عباد السلمى وتلاميذه ، وقد رماهم بالإلحاد من وجهين : أحدهما قول معمر بحوادث لا نهايةَ لها فيوجب ذلك حوادثَ لا يحصيها اللهُ وهذا تعارض مع الآية السابقة ، والثانى أن قوله بحدوث الأعراض فى الأجسام إلى مالا نهاية يؤدى إلى القول بأنها أقْدَرُ من اللهِ مع أنها محصورةٌ عنده وعندنا(٢) .

فإذا تركنا ذلك الجانب وجدنا المعتزلة تتكلم عن الإنسان وحقيقتِه كلاماً

---

(١) الفرق ٨٤

(٢) السابق ٩٢ ، ٩٣

أخذ عن آراء فلسفية تُضاف لأفلاطون وأفلوطين وفلاسفة أهل الرواق . ومع هذا لا يمكن أن نغفل أثر القرآن هنا بالذات ، إذ أن المتكلمين كلّهم ولا سيما أبا الهذيل والنظام قد حرصوا على تأييد آرائهم بآيات من كتاب الله . وقيل إن قول النظام بأنّ الروح جسمٌ واحدٌ لطيف يشابك البدن بحيث يكون « كل هذا فى كل هذا » يشبه قول الرواقيين بأن الروح نسمةٌ تكوّن جسمًا يتداخل فى البدن . كما قيل إن هذه الفكرة موجودة فى فلسفة جالينوس برغم أنه شابه أرسطو فى قوله عن الروح إنها جسم لطيف[١] . أما البغدادى فيكتفى بأن يقول إنه فى حديثه عن الروح هذا الحديث وقوله بالتداخل إنما يرجع إلى بدع الفلاسفة[٢] .

وأخيراً نقول إن من المسائل التى تعرض لها متكلمو البصرة ولا سيما المعتزلة مسألة « الكمون والظهور » ويرى الشهرستانى أنه مأخوذٌ عن الفلاسفة اليونان ، ومال فيها النظّام إلى تقرير مذاهب الطبيعيين دون الإلهيين[٣] . على أنه — أى الشهرستانى — يصرح بأن أنكساجوراس « أول من قال بالكمون والظهور حيث قدر الأشياء كلها كامنة فى الجسم الأول ، وإنما الوجود ظهورها من ذلك الجسم نوعًا وصنفًا ومقداراً وشكلا . . . كما تظهر السنبلة من الحبة الواحدة والنخلة الباسقة من النواة الصغيرة »[٤] .

وروى عن أنبادوقليس أن « الأشياء كامنة بعضها فى بعض » وأن الهواء يستحيل ناراً والماء هواء بتكاثف وكمون وظهور ، كما يحكى عن سقراط نوعًا من الكمون فى قوله : « إن النفوس الإنسانية كانت موجودة قبل وجود الأبدان على نحو من الأنحاء »[٥] ، وليس يخرج كل ذلك عما قال دهريو البصرة حين زعموا أن

---

(١) كتاب إبراهيم النظام ١٠٢

(٢) الفرق ٧٩

(٣) الملل والنحل ٣٩

(٤) نفسه ٢٥٧

(٥) السابق ٢٦٣ ، ٢٨٠

الأعراض كلها كانت فى الأجسام « وإنما يتعين الوصف على الإجسام بظهور بعض الأعراض وكمون بعضها »[١] .

وإذا كان الدهريون يقولون بقدم العالم شأن أرسطو فإن النظام — كغيره من المعتزلة — قال بحدوثه ، ولكنه استغل فكرتهم فى الظهور والكمون على ما يقول ولكنا نرى أن آراءه أكثر ملاءمة لكلام أنكساجوراس ويؤيد ذلك هورتن[٢] . وأما الجاحظ فقد احتفل بالفكرة نفسها احتفالاً شديداً وشرح آراء النظام أستاذه شرحًا وافيًا[٣] .

أثر الديانات السماوية :

ولكن ماذا عن الديانات المنزَّلة التى أثرت فى العقلية البصرية وأسهمت فى تخطيطها الفكرى ؟ أليس من الواجب أن نتلمس هذه الخطوط الدينية التى مرت بها فى تكوينها وتلونها ونضجها ؟ أما الإسلام فالأمر فيه أوضح من أن نقف عنده ، وأما اليهودية والنصرانية فكل الظروف تدعونا إلى النظر فيهما وتقصى ما رسب منهما فى ذلك المصر القديم . ونحن نخطئ إذا أغفلنا هذه الحقيقةَ التاليةَ ، وهى أن ضروب الثقافات التى مرّتْ بنا لم تأتِ للبصرة إلا مع ما أتاها من آثار المسيحية واليهودية ، وكان حملَةُ الفلسفة اليونانية بوجه عام نَصَارى قَبْلَ كل شىء .

ولقد كان اليهود والمسيحيون منتشرين فى المملكة الإسلامية ، وكان فى البصرة منهم عدد كبير فيهم قساوسة ورهبان يحاجّون المسلمين فى المِلَّةِ . وقد روى أن أبا الهذيل العلاف بلغه أن أحد اليهود قدم البصرة وأعيا بجدله متكلميها ، فذهب إليه وناقشه فيما حول عيسى والتوراة وما فيهما من تبشير بمحمد حتى

---

(١) الفرق ٨٦ ، ٨٧ .

(٢) كتاب إبراهيم النظام ١٤١ ، ١٤٢ .

(٣) راجع الحيوان ٥ : وما بعدها .

أفحمه[١] ، ورأينا قبلُ أن مجلس الحسن البصرى كان يغشاه رهبان النصارى يسمعون منه . وقد أسلم على يد أبى الهذيل وحده أكثر من ثلاثة آلاف رجل كما يقول المرتضى[٢] لا نستبعد أنْ يكون فيهم من المسيحيين واليهود كثيرون ، ويصرح « أرنولد » بأن آلافاً من النساطرة واليعاقبة كانوا يفرون إلى «التوحيد» بعد طول عداء وفرط صدام بينهم[٣] .

وكان النظّام يحفظ الإنجيلَ إلى جانب التوراة ويقدر على تفسيرهما معاً[٤] . وعرفت للجاحظ رسالة «فى الردّ على النصارى» يُفَنِّدُ فيها مزاعمهم ويبين ما كانوا يثيرونه هم واليهودُ من شبُهات . ولم يطمئن ابنُ قتيبةَ إلى هذه الرسالة فقال : « ويعمل — أى الجاحظ — كتاباً يذكر فيه حُجَجَ النصارى على المسلمين فإذا صار إلى الردّ عليهم تَجَوَّزَ فى الحُجَّة كأنه أراد تنبيههم على مالا يعرفون وتشكيك الضَعَفَةِ من المسلمين »[٥] .

على أية حال نطيل إذا ذهبنا نلح فى تقرير تلك الحقيقة ، وما يعنينا هنا هو ثقافة كل ملّة مما كان له أثر فى البصرة . فأما اليهودية فقد حاولت بتوراتها أن تتماسك لا سيما فى فترة الصراع بينها وبين المسيحية ، وقد اضطر كثير من اليهود إلى أن يتعلموا اليونانية ليواجهوا مشكلة التعريض بديانتهم من قبل الفلاسفة العقليين وظهر أمثال « فيلو » يدافعون عن عقيدتهم دفاعاً فلسفياً يذلل كثيراً من الصعاب التى تعترضهم[٦] .

ولما جاء الإسلام ظَهَرَ من اليهود علماء أسْهَموا فى بناء الحضارة العربية ، ومن هؤلاء أبو عبيدة البصرى ومن قبله من الصحابة كعب الأحبار ، وكان

---

(١) أمالى السيد المرتضى ١ : ١٢٤ (مطبعة السعادة سنة ١٩٠٧) .

(٢) المنية والأمل ٢٦ .

(٣) Preaching of Islam; 61 والتوحيد فى النص معناه الإسلام .

(٤) المنية والأمل ١٨ .

(٥) تأويل مختلف الحديث ٧٢ .

(٦) راجع بالإنجليزية كتاب « تراث إسرائيل» فيه فصل عن العلاقة بين اليهودية والفلسفة اليونانية .

هرون الأعور بن موسى — أحد القراء — يهودياً ثم أسلم[١]. واستطاع هؤلاء أن يمهدوا السبيل أمام المسلمين ليعرفوا الكثير عن التوراة فإذا شتى المؤلفين يعنون بتاريخ إسرائيل ، فعل ذلك الطبرى وفعله أيضاً ابن قتيبة ! .

وكان الربانيون منهم كالمعتزلة فى حين أشبه القراءون المجبرة والمشبهة[٢]. وهناك قوم قالوا بتناسخ الأرواح فتبعهم مسلمون[٣]. ونقل بعض المحدثين أن الأستاذ « شوفان » يرى أن بعض قصص ألف ليلة وليلة من أصل يهودى[٤] . فى حين كانت مدرسة الترجمة التى وجدت فى الأندلس تضم عدداً هائلامن اليهود ، وبرز منهم إبراهيم الفقّين الذى ترجم إلى القشتالية واقعة العروج المحمدى سنة ١٢٦٤ ميلادية .

أما المسيحيةُ بإنجيلها فشأنها أعظم من شأن اليهودية فى إقليم البصرة ، بل فى العراق كله . وكان المسلمون عَقِبَ فَتْحِه قد تفرغوا لها يناقشون أصحابها ، واضطرُوا إلى أن يقابلوا حجَجَهُم بحجج أخرى كما اضطرُوا إلى الاستزادة بالفلسفةِ اليونانيةِ قَصْدَ الإقناع والتسليم .

وقد التقى الإسلام بفرق النصارى مشبعة آراؤهم بثنوية الفرس فاستهوت هذه الآراء فرق المسلمين ؛ فابن ديصان مثلاً عرف المسلمون نظرته فى الخير والشر ، وفى النور والظلمة وكان أصحابه يسكنون بطائح البصرة[٥] .

وقالت المرقونية بالنور والظلمة ، وكذا قالت بهما المانوية[٦]. وكانت المانوية بالذات من حيث هى مذهب ، مزيجاً من المجوسية والنصرانية . وكان زعيمها يؤمن بالمسيح وينكر موسى[٧] ويقول ابن النديم إنه كان يكتب بقلم

---

(١) كتاب المعارف ١٨٠

(٢) الملل والنحل ١٦٤

(٣) التبصير للأسفرايني ٨١

(٤) أحمد أمين فى ضحى الإسلام ١ : ٣٥٧

(٥) راجع الفهرست ٣٣٨ والفصل ١ : ٣٦ وأمالى المرتضى ١ : ١٠٠ ودائرة المعارف ١ : ١٦٣

(٦) الفهرست ٣٢٨ ، ٣٣٩

(٧) التبصير ٨١ ، ٨٨

استخرج من السريانية والفارسية ووزع أصحابه فى الهند والصين وخراسان ، وبقوا حتى ولى الخلافة الوليد بن عبد الملك ؛ فكان من رؤسائها عبد الكريم بن أبى العوجاء وبشار بن برد وسلم الخاسر ومحمد بن خالد البرمكى وصالح بن عبد القدوس[١] . وكان يحيى النحوى أو يحيى الديلمى فيلسوفًا نصرانيًّا أيام على بن أبى طالب ، ولما صنف كتبًا فى الردّ على أفلاطون وأرسطو ساء النصارى فهمّوا بقتله ، ومنه أخذ الطب خالد بن يزيد بن معاوية[٢] .

إن هناك أكثر من جانب يكشف عما فى آراء متكلمى الإسلام من آثار التعاليم النصرانية سواء ما اختلط بالثنوية أوماخلص منها ، فمن النسطورية مثلاً من ينفى التشبيه ويثبت القول بالقدر خيره وشره من العبد ، وكذا قالت القدرية[٣] . والنصارى كلهم يؤمنون بالأقانيم الثلاثة ، وجاء أبو الهذيل فأثبت للذات صفات هى بعينها هذه الأقانيم على ما لحظ الشهرستانى ، وفعل ذلك أبو هشام فى أحواله حيث أثبت خواصّ مختلفة لشىء واحد[٤] .

وأما الحائطية فقد ضمت إلى مذهب النظام حكمًا من أحكام الإلهية فى المسيح موافقة للنصارى ، وابن حائط — شيخ الطائفة — يزعم أن للخلق خالقين أحدهما قديم وهو البارى والآخر محدث وهو المسيح[٥] .

وهكذا يطول بنا الأمر إذا ذهبنا نتقصى مثل هذه الإشارات . ولعل هذا ما حدا ببعض الباحثين كالأستاذ « فون كريمر » إلى أن يرى المعتزلة قد نشأت كفرقة من فرق النصرانية ، لا سيما فى عنايتها بالقدر وبصفات الله[٦] .

ومهما يكن من شىء فقد كانت النتيجة لهذا كله ، اصطراع شتى العقليات وأخذها بأطراف الثقافة المختلفة . وفى الوقت الذى كان فيه النصارى السريان على اختلاف مذاهبهم يعكفون على ترجمة الفلسفة اليونانية ، كانوا يشتغلون بالجدل والمناظرة فيما بينهم وبين المسلمين . وقد لُحِظَ أن تعليم مدارسهم لم يظل مصطبغًا

---

(١) الفهرست ٣٢٨ ، ٣٣٨

(٢) ظهير الدين البيهقى فى تاريخ حكماء الإسلام ٢٠ (نشرة محمد كرد على سنة ١٩٤٦)

(٣ ، ٤) الملل ٣٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦

(٥) الملل ٤٢ والتبصير ٨٢

(٦) أورد ذلك أحمد أمين فى ضحى الإسلام ١ : ٣٦٤ .

بالصبغة الدينية . لأن الدارسين فيها كانوا يعنون بمؤلفات بقراط وجالينوس فى الطب .

ولقد أثمر هذا الاحتكاك ثمراً طيباً ، ورأينا من السريان كثيرين يعكفون على الترجمة ؛ فيضيفون إلى التراث العربى آثاراً لانزال نتذاكرها إلى اليوم . وسأعرض لها فى الفصل الذى عقدته عن الترجمة .

* * *